قصة "حبة قمح" لهاشم غرايبة
دراسة لسانية دلاليّة

د. نهلة عبد العزيز الشقران

ملخـــص:

الخطاب اللغوي لم يأتِ من فراغ ولا يخصّ ذاتاً مفردة ينبثق منها، وإنّما يتشكّل في إطار واسع تجتمع فيه أنماط كثيرة من بنـــى ثقافيـــة، ونفسية، واجتماعية، ومعرفيّة، فهو ميدان واحد، يشكّله كل مبدع كما يشاء، ويبثّ فيه رؤاه الفكرية في قوالب لغوية تخصّه دون سواه، ليضـــفي على إنتاجه صبغة خاصة تميّزه عن غيره.

هذا الأمر بدا في "قصة حبة" قمح لهاشم غرايبة، مادة الدراسة المحلّلة، إذ تسفر عن لون فكري لغوي خاص بمنتج الخطـــاب، فتظهـــره بسمت معيّن يدلّ على ثراء معجمي وتشكيل نحوي وترميز دلالي يكاد ينطبع به المبدع في جلّ قصصه، وما هـــذه القصـــة إلا مثـــالا لمعانيـــه ومقاصده التي تسير جنبا إلى جنب مع قوالبه الشكلية، لذا عرضت لغة القصة في دراستي من وجهات معجمية، ونحوية ، ودلالية وفق مبـــادئ علم اللسانيات.

Abstract:

Linguistic discourse had not emerged from nothing and does not belong to a single self, but it is formed in a broad framework that combines many patterns of cultural, psychological, social, and knowledge structures. It is a single field, formed by each creative figure, where he transmits his intellectual visions through his ownlinguistic templates, to confer on his production a special dye that distinguisheshim from others.

This can be noted through "The Story of a wheat grain" for HashimGharaibah, the analysis studymaterial. The story has aspecial intellectual linguist pattern embedded in thespeechproduct, so it shows it in a special way that suggestslexical richness, grammatical formation andsemantic encoding that characterize the author in almost all his stories, and this story is only an example of his meanings and purposes that go along with his formalized templates, so Ipresented the language ofthis story in my study discussing lexical, grammatical and semantic views according to the principles of linguistics.

المصطلحات والرموز الصوتية:

تتماسك أجزاء الخطاب لتنـــتج ترابطـــا لغويا خاصا يستند بعضه إلى بعـــض، فيهـــدف التماسك إلى إيصال الرسالة، وتحقيق التفاعـــل معها، فيظهر بين مكوناتها، على اعتبار أنّه مقوم أساسيّ من مقومات كلّ جملة فيها؛ إذ لا يمكـــن أن تبنى الجملة دون وجـــود التماســـك. ويـــأتي الوصف في طليعة الأساليب التي تعمـــل علـــى تماسك الخطاب، فتجعل الموصـــوف مرتبطـــاً بالموضوع كلّه[١]. وللوصف في خطاب القصـــة المدروسة آليّات كثيرة متّبعة كالتفصـــيل حينـــاً والإجمال حيناً آخر، والتكرار بإعادة ألفاظ معينة أو بالمعنى، وكثرة الإحالات الضميرية والروابط الزمانية والتركيبية، وغير ذلك من الآليات التي تجعل النص متماسكاً ومترابطاً، وبناء عليه تـــمّ تحليل هذا الوصف في القصة المدروســـة وفقـــا لثلاثة مستويات هـــي: المعجميّـــة، والنحويّـــة، والدلاليّة في الصفحات الآتية.

للمبدع اختياراته الخاصّة إذ يظهر أحـــد أشكال العلاقات على لغته أكثـــر مـــن غيـــره، كاختيار معجمي خاص أو أسلوب نحوي معيّن، أو إيحاءات دلالية مقصودة، كمـــا تبـــرز أدوات وروابط في خطابه تصـــبغه بصـــبغة خاصّـــة، وتؤدّي إلى ترابطه وانسجامه، هذا الترابط أشار إليه الجرجاني، وبيّن ضـــرورة اتّحـــاد أجـــزاء الكلام، ودخول بعضها فـــي بعـــض، واشـــتداد ارتباط الثاني منها بالأوّل، فتوضع الجملة فـــي النفس موضعاً واحداً[٢]. وليس "النظم" شـــيئاً إلا

توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقـه، فيما بين معاني الكلم[٣]، فتأتي المعاني في تماسك وانتظام لفظي، تتعلّق الألفاظ ببعضها وتـأتلف، فيقول: "واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمـت علماً لا يعترضه الشك أنّ لا نظم في الكلـم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[٤].

بناء على ما سبق، سأبين أكثر ملامـح الخطاب اللغوي بروزا في القصة المدروسة وفق المستويات: النحوية والمعجمية والدلالية في مـا يأتي:

١- المستوى النحوي

يرى هاليدي ورقية حسـن أن الاتسـاق أو عدمه هو المعيار الفاصل بين النص واللانص، فتختلف النصوص فيما بينها في الطريقة التـي تبني بها العلاقات الاتساقية نصا ما[٥]، أمّا أهـم الأدوات الاتساقية النحوية التي عرضاها فهـي الإحالة والحذف والبدل والوصل بأنواعه، وقسما الإحالة إلى نصيّة ومقاميّة، تقوم الأولى بـدور فعّال في اتساق النص، ولذا يتخـذاها المؤلفـان معيارا للإحالة[٦]، ثمّ حـدّدا وسـائل الاتسـاق الإحالية بالضـمائر وأسـماء الإشـارة وأدوات المقارنة، ففي كل خطاب لغوي أنواع كثيرة من أدوات الاتساق، قد تتغيّر من أول الخطاب إلـى نهايته، لغايات يقصدها المرسل، وتخدم الفكـرة التي يريد إيصالها، وإنّ ما يعدّ أساسـا بالنسـبة لكل حالة من الإحالة هو "وجود عنصر مفترض ينبغي أن يستجاب له، وكذا وجوب التعرف على الشيء المحال إليه في مكان ما"[٧].

في الجدول الآتي تمّ عرض أمثلة مـن القصة تتضمن العناصر الاتساقيّة المذكورة فـي قصة "حبة قمح"، واكتفيت بالإحالـة الضـميريّة بذكر ضمائر الغيبة والملكية لما لها مـن أثـر أقوى في الاتساق الخطاب كمـا رأى هاليـدي ورقية حسن[٨]، إذ تقوم ضمائر الغيبـة بـربط أجزاء الخطاب اللاحقة بالسابقة، وتبرز العناصر الأكثر أهمية بالذكر من غيرها، ويشير ضـمير الملكية إلى محالين اثنين: مالكا ومملوكا، فيبـيّن دلالة مزدوجة خاصة لقيمة المملـوك ورغبـة المالك في الحصول عليه.

العنصر الاتساقي	نوعه	العنصر المفترض
سمائي[٩]	إحالة ضميريّة قبليّة	حبة القمح
موقعي هذا	إحالة ضميريّة وإشاريّة قبليّة	حبة القمح/ موقعي
أن تكون الظروف قاسية، بل لعلّها دائما قاسيّة	وصل عكسي	الظروف قاسية/بل/ دائما قاسية
يحدث...	حذف	....
وهي تجف وتتشقّق	إحالة ضميريّة قبليّة	السماء
لتصير تلك السماء	إحالة إشاريّة بعديّة	السماء/ حبة القمح
تكمل زينتي	إحالة ضميريّة قبليّة	السماء

العنصر الاتساقي	نوعه	العنصر المفترض
يطل برأسه من كتف أمه	إحالة ضميريّة قبليّة	طفل
(لا أرى الأماكن ..إلا وأنا منسحب منها أو هي هاربة مني)	إحالة ضميريّة قبليّة	الأم
تصير ماضيا	إحالة ضميريّة قبليّة	الأماكن والشخوص
تهبني العزم	إحالة ضميريّة قبليّة	طاقة
نار تشتعل داخلي	إحالة ضميريّة قبليّة	نار/ حبة القمح
هذا الجحيم	إحالة إشارية بعديّة	الجحيم
يسمونه الموسم	إحالة ضميريّة قبليّة	احتفال
تلك الأوقات العصيبة	إحالة إشاريّة بعديّة	الأوقات
طوين سررهن	إحالة ضميريّة قبليّة	مثيلات حبة القمح
(الكثير من مثيلاتي الجزء الأعظم من أخواني)	إحالة ضميرية قبليّة/ استبدال	حبة القمح (الكثير من مثيلاتي/ الجزء الأعظم من) .....
....لكني رأيت	وصل عكسي	ذرة الواحد فيهم
....لكنها فرحة بتحررها	إحالة ووصل عكسي	سلطة الكينونة
تجبرها	إحالة ضميريّة قبليّة	عينا حبة القمح
لا أفتحهما	إحالة ضميريّة قبليّة	الخصوصية
أحتاجها	إحالة ضميريّة قبليّة	حبة القمح
لأميز نفسي	إحالة ضميريّة قبليّة	الكم
هذا الكم	إحالة إشاريّة بعديّة	حبة القمح
أشباهي	إحالة ضميريّة قبليّة	حبة القمح
شريط حياتي	إحالة ضميريّة قبليّة	حبة القمح
تفتر همّتي	إحالة ضميريّة قبليّة	الملكة
قطعت دفق سباتي	إحالة ضميريّة قبليّة	الملكة
صدح بوقها	إحالة ضميريّة قبليّة	الذات المنتجة
لا تراودها	إحالة ضميريّة قبليّة	اختفاء/ حبة القمح
تحاول خلاله اختزال العالم تحت قشرتها	إحالة ضميريّة قبليّة	الذات المنتجة
هذه اللحظة	إحالة ضميريّة قبليّة	اللحظة
(لحظة انسكب من عروقي أول كمّ من عصير النضج لحظة اختلاط شرنقتي...)	إحالة إشاريّة بعديّة	(حبة القمح/ لحظة انسكب/ لحظة اختلاط)
هذا العالم	إحالة ضميريّة قبليّة	العالم

العنصر الاتساقي	نوعه	العنصر المفترض
أطل برأسي أدرت ظهري	واستبدال	حبة القمح
ذلك الطفل	إحالة إشاريّة بعديّة	الطفل
(صار شغوفا بمواجهة ما هو أمامه)	إحالة ضميريّة قبليّة	الطفل
ها هو أمامي	إحالة إشاريّة بعديّة	
الآن فقط رأيته	إحالة ضميريّة قبليّة	
قرّب رأسه مني وهمس	إحالة ضميرية قبليّة	الطائر
يا لجرأته	إحالة ضميريّة قبليّة	الطائر
حفيفها المنتظر	إحالة ضميريّة قبليّة	الأردية الخضراء
لي حبة القمح	إحالة ضميريّة قبليّة	الطائر
الزمن الذي طرت به	إحالة ضميريّة قبليّة	الزمن

تبدأ القصة بجملة مفتاحيّة ذات دلالات خاصة "منذ الأزل كان الأمر هكذا"(١٠)، هذه البداية ستوجّه الخطاب توجيها لن يحيد عنه حتى تتمة القصة، ويتسم الإيحاء الزماني بالحتميّة الاستمراريّة في "منذ الأزل" والإشارة الآنية في "هكذا" التي توصل للمتلقي أن الأمر ليس جديدا ولا قديما، هو دورة حياة كونية تبدأ وتنتهي بانتهاء الحياة على وجه الأرض، فتبرز أدوات وروابط في الخطاب تصبغه بصبغة خاصّة، وتؤدّي إلى ترابط جمله بنسق معيّن.

أمّا "عادة أولد وأتجدّد" فمن شأنها أن تأكّد حدوث أمر مكرّر بلا تغيير في دورة رتيبة كتبادل الليل والنهار. بعد ذلك يتجه الخطاب تدريجيا في إظهار أربعة مراحل من مراحل حياة حبة القمح هي:

- **مرحلة الشرنقة**

الانتقال من الفعل الماضي في "كان الأمر هكذا" إلى المضارع في "عادة أولد وأتجدّد" سيرورة زمنية للقصة يسلك فيها الخطاب ترتيبا قصديّا لربط المضيّ الثابت بالمضارع المكرّر كي يقنع القارئ أن دورة الحياة الأزليّة لم تقف في لحظة زمنيّة معيّنة، بل تتضارع كلّ يوم بشكل رتيب منظّم كتعاقب الليل والنهار، وستستمر إلى نهاية الأجل بلا توقّف.

"أولد أنا وأخواتي معا إلى أن يئن الأوان"(١١)

يؤكد الرابط الاتساقي العطف والضمير- المستتر الفاعل، والمنفصل لتوكيد الفاعل وعدم الاكتفاء به لدلالة "الأنا"، والملكية الياء" – في الخطاب فكرة الجمع الأزلي، وزيادة في الإصرار على الفكرة ذاتها تأتي "معا" لتبيّن للقارئ أن من كانت هذه حالته لن يكون وحده من يعيش التكرار الأزلي، بل لا بدّ من شركاء له في ذلك، ويؤثر الاتساق المتلازم من عطف وضمير في ترسيخ الفكرة السابقة لديه، فيقبل بحتميّة الأزليّة لذات الأنا الراوية، ويألف العالم الذي تنقله إليه القصة، فيخرج من دائرة الفرد إلى دائرة الجماعة، ويثق باستمرارية دورة

الذات الراوية بشكل منظّم يضمن لها وجودها حتى لو سقط عنصر منها اليوم وآخر غدا، فيتقبّل الاندماج في كينونتها وخوض تجربة الحياة فيها، ويقارب بينها وبين دورته الإنسانية. الأصل في الدورتين معا هو وجودهما واستمرارهما في دورة مستمرة منظّمة لا ترى الفرد فيها بل تعدّ مشهدا كونيا دالا على مضيّها في عملها الدائب.

في الجملة التي تليها: "أعلمكم أن التأنيث والتذكير لا معنى له في عالمي"(١٢) أكبر دليل على ذلك، فكأنّ الخطاب يمهّد لما هو آت، فكلما احتاج الأمر مواجهة القارئ بالحقائق والمسوّغات لمجريات الأحداث واجهه بهذا البرهان.

تصرخ الأنا برغبتها بحضور مختلف منذ بداية القصة، وذلك بإسناد كلمات تشي بالتفرّد مثل: (موقع/ نفس/ زينة) أو بالحرية مثل: (سماء) إلى ياء الملكية، "إذ أن تشكيل المعنى أو إبرازه يعتمد على وضع الضمائر داخل النص، إذ أنّ هذه الضمائر من بين الوسائل التي تحقّق التماسك الداخلي والخارجي"(١٣)، فرغبة حبة القمح الملحّة بإثبات الذات وانفصالها عن جمعها جعلت الخطاب يسند المسميات العامة لها، فليس موقعها مثيلاتها في السنبلة هو بل موقعها، وبدت لها نفس مستقلة قبل الانفراط من شرنقتها، وكل هذه الدورة لتنشأ لها زينتها الخاصة التي تريد ألّا تشبه بها أحدا، وحتى السماء ملك لها على الرغم من أنّ المقصود هنا السماء الخضراء (الشرنقة) قبل الانطلاق نحو الذاتية الخالصة.

- **مرحلة ما بعد الشرنقة**

يعقد الخطاب مقاربة بين الجملة الافتتاحية "منذ الأزل كان الأمر (هكذا)" بواسطة العنصر الاتساقي الإشاري الدال على أمر قريب يتشكّل أمام أعيننا، وكأننا نراقب الدورة منذ ابتدائها وحتى نهايتها، فنشعر بكلّ تفاصيلها، وجملة "لا يحدث (ذلك) بيسر وعفوية" بواسطة العنصر الاتساقي الإشاري الدالّ على أمر بعيد تشكّل وانتهى مكتملا دون أن نشعر بتفاصيله، فلا ندرك صعوبة تشكّله. ينبّه الخطاب القارئ الذي قد يظنّ أن دورة رتيبة مكرّرة قد تكون أمرا سهلا، ويبيّن له أهميتها وما تواجه من تحديات في الجمل التالية: "فالمصاعب ماثلة دائما، والمعاناة ضريبة أن أحيا وأحقّق ذاتي، وأتجدّد متجرّعة المحن، صابرة على مخاطر الطريق التي لا تحصى"(١٤)، فيسلّط الضوء مرة أخرى على الديمومة الزمنيّة إضافة إلى لفت النظر إلى كثرة الصعاب.

يعاود الخطاب إلى إظهار البؤرة الزمنيّة الاستمراريّة في: "يحدث...يحدث كثيرا أن تكون الظروف قاسية، بل لعلّها دائما قاسيّة"(١٥)، العنصر الاتساقي الحذف يتمثّل في "يحدث" الأولى بدلالة النقاط على أمر كبير يحدث تفسّره الجملة التالية بفاصل زمنيّ تكثيريّ بين الفعل "يحدث" والفاعل المصدر المؤول "أن تكون الظروف قاسية"، والعنصر الاتساقي العطف في "بل" يضرب به الخطاب عن "كثيرا" التي تدخل في دائرة الاحتمال ولو بالتغليب إلى "دائما" التي

تخرج من دائرة الاحتمال إلـــى الإقـــرار التـــام بالعنصر الاتساقي الوصل العكسي.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا لم الجمع بين هاتين الحالين في بيان حدوث الأمر إن كانـــت النتيجة المتوخاة من هذا هي الإقرار بحدوثه؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى بيان أهميـــة عناصر الاتساق في الخطاب ليس مـــن زاويـــة شكليّة فحسب بل من نواح دلاليـــة أيضـــا، وإن كانت أدوات الاتساق تـــربط الهيكـــل الشـــكليّ للنص. أيّ أن الاتساق بالعطف ربط بين جزئين من الخطاب ليجعلهما متسقين باستعمال "بـــل"، وإنما الذي ينبغي أن ينظر فيه هـــو مبـــرّرات الجمع بين العنصريين بهذه الأداة تحديدا، وهـــذا الوصف الزمني خاصة في حـــين أن خيـــارات نسقيّة أخرى كانت متاحة للخطـــاب أن يســـلكها لينشئ المعنى الذي يريد، العنصر الاتساقي "بل" مكّن هنا من بناء صورة واضحة تريـــدها هـــذه الجزئية من الخطاب، بإيصـــال الوصـــف إلـــى المتلقي بشكل تدريجيّ انطلاقـــا مـــن "يحـــدث" المبهمة المنفردة ثم مرورا بـــ"كثيرا" المفسَّـــرة بالفاعل، وانتهاء بـــ"غالبا" الموضِّحة للسابق لها.

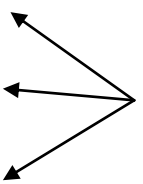

كأن المتلقي يصعد درجات المعرفة للأمر الـــذي يحدث حتى يستقرّ في نهاية المطاف في ذهنـــه بشكل يقينيّ فلا يحدّثه قلبه أنّ الأمر مبالغ فيه أو يعتريه الشكّ.

يستثير الخطاب فضول المتلقي في: "رأيت أترابي" وما تلاها من أنســـاق لغويـــة تركيبيّـــة توضّح أمر الرؤية التي تنقسم إلى حالين:

- رؤية بصرية فـــي: "وهـــن يطحـــن أو يختفين".
- رؤية بصريّة قلبيّة فـــي: "أو تعانـــدهن الظروف"، "يعدن أدراجهن إلى العدم".

تسيطر ذات البطلة في وصف حـــدث الرؤية، وتحدث في فهم القارئ ملابسات عـــدة توصله في نهاية المطاف إلى حتميّة اســـتكمال دورة الحياة الأزليّة، فتنقل شعور المأساة التـــي تحياها أترابها بأفعال مضارعة متكرّرة "يطحن/ يختفين...الخ" لحدث الرؤية الماضـــي "رأيـــت" الأزليّ الذي يحتّم قبول الاندماج في دورة الحياة والتعاطي مع حتميّة الموت الفردي فيها بشـــكل ميسّر.

"الطحن، الاختفاء، العدم، المعانـــدة" فـــي كـــل دلالاتها الحرفيّة البؤس والشقاء الـــذي لا مفـــرّ منه، تجعل القارئ يحسّ بحركة ذهاب وإيـــاب الأتراب في جماعات تتفرّق حينـــا، ثـــمّ تعـــود وتسير في سرب واحد نحو النتيجـــة المتوقعـــة وهي الهلاك.

- **مرحلة النضوج**

الخوف من السقوط والطحـــن يســـيطر على الذات في تصـــوير دورة الحيـــاة، وعلـــى الرغم من يقينها في حتميّة الأمر غير أنّها تسعى إلى نهاية مختلفة، فيمهّد الخطاب لهذه الرغبـــة التي تتفرّع في اتجاهين: رغبة الاستغراق فـــي اللذة والألـــم قبـــل الطحـــن، ورغبـــة التفـــرّد

والاكتشاف من جهة أخرى، ونجد في الأسطر الآتية هذا التمهيد: "عادة أولد مع أترابي متلفّعة بشرنقتي الخضراء الناعمة، وأظلّ تحت سمائي التي تبدو من موقعي هذا بلون بنفسجي لامع".

الخلق القدري هنا الجامع بينها وبين أترابها، والانبعاث من الشرنقة الخضراء الناعمة دال على الحياة الأولى الهانئة حيث كانت عناصر الطبيعة (الأرض، الشمس، الماء)، والأم السنبلة التي تعطي الحياة لها بلا مقابل سوى أن تكبر وتنضج، وبذا تنتهي المرحلة الأولى لتهيئ حبة القمح وأترابها لمرحلة ثانية تستقلّ فيها البطلة، وتنطلق خارج السنبلة الأم تواجه مصيرها المحتوم منذ بداية الأمر كما بيّن الخطاب سابقا.

العنصر الاتساقي الضميري وعنصر العطف يبنيان صورة الخلق لحبة القمح، الولادة مع الأتراب، والبقاء تحت السماء "الشرنقة" لحين اليوم الموعود، يوم التحقّق والانبعاث على صورة السلف، لكنها وحدها من تشعر بالشفقة على السنبلة وهي تتشقّق لاكتمال زينة حبة القمح، فتكون كطفل يكتشف العالم خارج كتف أمّه: "لا أرى الأماكن والأشخاص إلا وأنا منسحب منها أو هي هاربة مني"، ففي إطار علاقة الإثبات والنفي نجد أن ذات المتكلم تثبت علاقة الاندماج بالجمع المتمثّل أولا بالأم وثانيا بالأتراب، وينفي الرؤية المستقبليّة للعالم دون اتصالها بالجمع الأم، لكنّه يؤكّد في الوقت ذاته أنّ هذا الأمان ليس دائما في دورة الحياة، بل إمّا منسحب منها أو هي هاربة منه، ليهيئ لما هو آت من حقيقة محتّمة.

ينتقل الخطاب إلى مرحلة جديدة في حياة حبة القمح، فتتحرّر من السنبلة الأم، وتنفتق من سماء الغلاف الأخضر إلى السماء الزرقاء، فيبدو زمن المضارعة مناسبا أكثر في وصف كمال النضج (فأختال / أزيّن / أعلّق / أمسح)، ثم يعقد مقارنة بين حبة القمح وأترابها في مرحلة ما بعد الشرنقة، "دائما أنجو فلا أذهب للطاحون"، "فتغمرهم سعادة مؤقتة بهطول المطر...لكنهم لا يلبثون أن يصلوا نارا حامية فلا تعود ذرة الواحد فيهم تدرك من أين جاءت ؟ ولا إلى أين مصيرها؟ لكنها فرحة بتحرّرها من سلطة الكينونة التي كانت دائما تجبرها على التشكّل من جديد"، ويعمد إلى استخدام العنصر الاتساقي الوصل العكسي في هذا، إذ يظهر الصورة التي يريد بشكل دقيق، فالوصل العكسي يقدّم جملة مركّبة تتكوّن من عبارة أساسية بسيطة، وعبارة أو عبارات أخرى تعتمد على العبارة الأولى، فيربط بينها. وإنّما يكون ذلك باتباع الطريقة التي تربط اللاحق مع السابق بشكل منظّم(١٦)، فقد يكون ذلك بربط صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة التعارض(١٧)، كما اتضح أعلاه بالأداتين (لكن، بل).

يقدّم علماء الخطاب تصوّراً دقيقاً لصور الوصل عامة، ويذكرون أن التماسك، أو الترابط النحوي له دلالة تربط كلّ جملة في الخطاب بالجمل الأخرى(١٨)، إذ تترابط الجمل وتتناسق دلاليّاً وبأدوات لفظيّة كأدوات الربط، وأدوات

العطف، وأدوات الشرط وغير ذلك. فلا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها[١٩]. وللمبدع اختياراته الخاصّة إذ يظهر أحد أشكال العلاقات على لغته أكثر من غيرها، ويبدو ذلك في الأمثلة المدرجة في الجدول السابق.

- **مرحلة ما بعد النضوج**

يهدف التواصل إلى إيصال خبر ما بأشكال لفظيّة مختلفة، عبر مرورها بقناة التواصل المشتركة. "فالخبر هو المعلومة الجديدة التي تمنح المتلقي وصفاً يجهله عن حدث معين" [٢٠]، فيشكّل مضموناً يضمن الفائدة التواصليّة، بين المرسل والمتلقي، ويعبّر عن انفعال المرسل إثر مشهد ما علق بذهنه، فجعله يتأثّر به، فتأتي رسالته لتحقّق إشباعاته الفرديّة أولاً، ثم الجماعيّة ثانياً، بالنظر إلى بنية المحيط الاجتماعيّ له. الخوف من انمحاء الذات في الجمع كان يتولّد في حبة القمح، ورغبتها في الخصوصيّة بين الكم الهائل من أشباهها لكي لا تكون عادية المذاق في أوان الحصاد، فتتمرّد على دورة الحياة، وتبحث عن طريق جديدة بعيدة عن الدور الذي خلقت من أجله، فهي ليست مسؤولة عن استمرار النوع وسمو الجنس.

يبدو ذلك عند حديثها عن مثيلاتها كما في: "الكثير من مثيلاتي الجزء الأعظم من أخواني– هل سبق أن قلت لا معنى للتذكير والتأنيث في عالمي؟– يذهبون إلى الطاحون، فيفقدون كينونتهم بيسر ويتحولون إلى ذرات دقيقة" [٢١]، فعدم وجود معنى للتذكير والتأنيث في عالمها لا يوجب عليها أن تميّز بين المثيلات والإخوان، فتكون العبارة الثانية استبدالا عن الأولى، لكن هذا الاستبدال لم يأتِ عبثا، في حين أنها بيّنت مسبقا أن لا معنى للتذكير والتأنيث في عالمها، فجاء كل من التكرار والاستبدال لدلالة التأكيد، كما أسهما في اتساق الخطاب، فيعتبر الاستبدال وسيلة أساسيّة تعتمد في اتساق النص، ومعظم حالاته قبليّة[٢٢]، أي علاقة بين عنصر متأخر كـ(الجزء الأعظم من أخواني) وبين عنصر متقدم كـ(الكثير من مثيلاتي)، كذلك الحال في: "لحظة انسكب من عروقي أول كمّ من عصير النضج لحظة اختلاط شرنقتي الطفوليّة الخضراء بأردية النضج الذهبيّة"[٢٣]، فانسكاب أول كمّ من عصير النضج هو ذاته اختلاط الشرنقة الخضراء بأردية النضج، غير أن الأول ذاتيّ خاص، والثاني جمعيّ عام منسوب بياء الملكية في (شرنقتي) للذات، فيستبدل به في المعنى عن الأول لشموليته للذات ومثيلاتها في الشرنقة الواحدة، لكن ورود النسق اللغوي الخطابي في هذه الصورة الاستبداليّة أعطى الصياغة طابعا خاصا شكليّا ودلاليّا، ووهب حبة القمح تفرّدا وإن شاركتها به المثيلات.

تظهر بعد ذلك المرحلة الأخيرة من حياة حبة القمح في حوارها مع الهدهد، فالحوار يمكن أن يُعالج بوصفه مناظرا لتفسير النص[٢٤]، هذا

الحوار من شأنه أن "يترك فراغات على نحو معتمد لكي يملأها القارئ، وعادة ما تنجم الفراغات من حيل أسلوبيّة، لا يكتشفها ويفهم أبعادها ودلالاتها إلا قارئ متمرّس"[٢٥]، فجاء الحوار مكثّفا بالدلالات موجزا يشي برغبة جامحة لدى حبة القمح في التحرّر والانطلاق نحو المجهول الذي سعت للكشف عنه، وبدا متماشياً مع الوضع النفسي الذي تحياه الذات الهاربة من الثبات في الوصف بالإنشائي، إذ لم يستخدم من الأفعال إلّا ما دلّ على الطلب وجوابه كخطاب: (خذني، أحب، مللت، سأحملك، ليكن، أحبك)، وظهر النداء (أيها الطائر) والاستفهام(ما اسمك؟ إلى أين؟) والتعجب(يا لجرأته! يا للموسيقى! ما أوسع الفضاء! يا لروعة الزمن!)، وكأن الخطاب لم يعد مهتما بإظهار الحقائق الكونيّة وتأكيدها في هذه المرحلة من الوصف الجمالي لحدث فريد تحياه حبة القمح بقدر اهتمامه بجعل المتلقي يرى صورة الذات الفردية تُعكس في نفسه، فينسى الجمع ويندمج بها، ويشعر بمكنونات ذاتها، فأثار بذلك انتباه المتلقي لما يريد إيصاله من دلالات.

قلّب خطاب الحوار الأسماء والضمائر؛ لتدور حول موضوع واحد، يوحي بايجابية المغامرة لكل من حبة القمح والهدهد كخطاب: (عليك السلام، جرأته، أنا للريح والشمس، لي حبة القمح واللحظة العابرة) فيثير شعورا برغبة المواجهة، إذ الثبات الاسمي يشي بالحال المأمولة لهما من هذه المغامرة، فيهربان من الثبات الكوني للحظة عابرة بتراكيب لغوية مغايرة للحقائق، وكأن الخطاب يعمد هذا التعاكس بين الثبات والتقلّب في المعنى والشكل التركيبي ليعطي المغامرة انطباعها الأنسب، فهي مجهولة العواقب. ويبدو تقديم الخبر على المبتدأ في: (لي حبة القمح واللحظة العابرة) إثباتا وتأكيدا للامتلاك الذي يرغب به الهدهد في الوقت الذي هربت به حبة القمح من انمحاء الذات، فيفوق التأخير في: (أنا للريح والشمس) في التملّك الحرّ الذي يريد أن يهب به ذاته للريح والشمس، وشتان بين الحالين!

نسج الخطاب نهاية هذه المرحلة من حياة حبة القمح بأفعال ماضية ذات وقع نفسي مؤثّر في المتلقي: (تلقفني لسانه، غابت زرقة السماء، حاولت الخروج، غصّ الهدهد، تخبّط، مال مستسلما للريح، هبط) لتثبت حقيقة الفناء ذاتها أيّا كانت سبلها، ومن أجل الوصول إلى حتميّة زوال الذات مهما حاولت الانفلات من دورة حياتها الكونيّة.

يشتدّ التأثير عندما يتعلّق الأمر بالفكر الدينيّ الذي ينشد به الخطاب الراحة النفسيّة، فيردّ ضالّة الذات المتمرّدة إليها بالاتساق الإشاري والضميري وأسلوب الحصر في: " تاركين بقعة ملونة على هذه الأرض التي تشي بوهم الخلود، ولا تفوح منها إلا رائحة الموت"[٢٦]، غير أنّه في الوقت ذاته يجلّى الاهتمام بدور الذات الخاص، مهما اندمجت بالكلّ الجمعيّ في لفظة (ملونة) وما تشير إليه، ففي هذا اختيار متعمّد للفظة تثبت جمال المغامرة واختلافها عن الرتابة القاتمة.

وبعد، فإن عرض كل أمثلـــة الاتســـاق النحوي في القصة يصعب حصرها فـــي هـــذا الميدان، وإنما اكتفيت بأكثرها بروزا للتدليل على الاتساق، وهذا الاتساق لم يكن شكليّا فحسب، بل لا يتحقّق إلا جنبا إلـــى جنـــب والدلالـــة التـــي خصّصت لها جزءا آخر من هذه الدراسة.

٢ – المستوى الدلالي

يُنجز الخطاب عند التلفّظ بـــه، ويتّخـــذ حيّزاً يكون به كائناً مستقلاً بنفســـه، وتتـــرابط جمله، لتشكّل وحدات مركبة، فلا يدركه الفكـــر وحدات منفصلة، بل يحيل الوحـــدة إلـــى قامـــا تشبهها أو تعاكسها أو تنضمّ معها ضـــمن مبـــدأ الجزء والكل، هذه العلاقات بين المفردات مـــن اختيار المبدع وحده ليخدم الخطاب بالطريقة التي يشاء، فلا تفرضه خطيّة الخطاب بشكل رياضي، ولا تردّ صياغته في تتابع ضـــروريّ لازم دون سواه، بل يتشكّل وفقا لكل مبدع بصورة مغايرة عن غيره، وكلما لحظ التغاير اتضح التفرّد، هذا الأمر الذي يجعل لكل مبدع معجما لغويّا خاصا فيه، يدور في محوره مهما ابتعد.

للقصة المدروسة اختيارات معجميّة خاصة كمـــا يبدو في الجدول الآتي:

العنصر الاتساقي	نوعه
التذكير/ التأنيث	مقابلة
الليل / النهار	مقابلة
رتيبة/ مكرّرة	شبه ترادف
يسر / عفويّة	شبه ترادف
يطحن/يختفين	شبه ترادف
قبيح/ جميلة	مقابلة
التربة/ الطقس	تضام
التحقيق/الانبعاث	شبه ترادف
منسحب/هاربة	شبه ترادف
المواجهة/التحدي	شبه ترادف
ألفته/ جهلته	مقابلة
مكان ترابي/ نقطة ماء/ لسعة برد/ نقطة لبن دافئة	مقابلة وتضام
محطة توايد/ طاقة	تضام
صدري/معصمي/ عيني	تضام
مستسلمة/ متباهية	مقابلة
زينتي/جواهري	تضام
حر/ نار /جحيم	تضام
المصاعب/ المعاناة/ المحن/ المخاطر	شبه ترادف
تجف/ تتشقق	شبه ترادف
الصغيرة/ أكبر	مقابلة
الكمال/ البهاء	شبه ترادف
دافئا/ دافئة	تكرار
مخيلتي/ الخيال	تكرار
أذكر لسعة برد/ أذكر نقطة لبن دافئة	تكرار/ مقابلة
أترك سرتي / طوين سررهن	مقابلة

العنصر الاتساقي	نوعه
تغمرهم سعادة/ ينتشون	شبه ترادف
أنجو/ ذهبن إلى العدم	مطابقة
مصير/ مصائر	تكرار
الماء/ المطر	تضام
أغلق/ أفتح	مقابلة
متقطع/ مشوش	شبه ترادف
أحبط/ تفتر همتي	شبه ترادف
بديع/ مبدع	تكرار
نوعنا/ جنسنا	ترادف
عجلة/ تدور	تضام
هذه اللحظة/ لحظة انسكب/ لحظة اختلاط	تكرار
خائفة/ مرتبكة	شبه ترادف
راغبا/ منسحبا	مقابلة
ترسخ ماضيا/ مواجهة ما هو أمامه	مقابلة
الريح/ التراب	تضام
تحملني/ سأحملك	تكرار
الريح/ الشمس	تضام
اختفاء/ نختفي	تكرار
تراب/ طفولة	تضام
مرارة/ حلاوة	مقابلة
الموت/ الخلود	مقابلة

ظهرت العلاقة المعجمية في الخطاب المدروس كالترادف وشبهه والمقابلة والتكرار والتضام، ويبدو شيوع شبه الترادف فيه، إذ عُدّ الترادف وشبهه من درجات السبك ومقوماته[٢٧]، فهو نمط من أنماط التكرار، ولم يقصد بها المبدع إلّا الشيء نفسه معتمداً كل لفظة وما يناسبها من وصف، فالأمر الموصوف "دورة الحياة" بين الثبات والتكرار، "رتيبة" صفة مشبهة تدلّ على الثبوت، و"مكرّرة" سم مفعول من "كرّر"، كرّر الشيء تكريرا وتكرارا أعاده مرة بعد أخرى، فالأمر الرتيب يتكرّر كل يوم، والأمر المكرّر كل يوم رتيب دائم، علاقة دائرية بين المفردتين شبيهة بالترادف، وكذلك الحال في "يسر" أي السهل المعدّ المهيّأ، وعفوية أي تلقائيّة وما نقوم به بدافع ذاتيّ بدون تأثير خارجيّ، غير مكتسب بالتَّعليم[٢٨]، وعلى الرغم من أن دورة الحياة رتيبة مكرّرة غير أن الأمر ليس عفويا ولا سهلا، بل هو منظّم صعب يحتاج جهدا وعناية ليبدو كما يُرى عاديا.

جاء شبه الترادف لبيان حالة نفسية أيضا كما في: منسحب/ هاربة، خائفة/ مرتبكة، متقطع/ مشوش، تغمرهم سعادة/ ينتشون، أحبط/ تفترّ همّتي، كلها أفعال أو مشتقات تبين حالة التقلّب التي تعيشها البطلة ومثيلاتها، بينما جاءت المصادر كما في: الكمال/ البهاء، المواجهة/ التحدي، المصاعب/ المعاناة/ المحن، فثبوتها

يلائم دلالة المعنى الإيحائي لها من كينونة وجودية وهبها إياها الخالق أو ظروف قاهرة توجب عملا ثابتا وشقاء مستمرّا.

أمّا التكرار فيأتي لإعادة المعنى في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كُرِّر فيه الكلام إما مبالغة في مدحه، أو في ذمّه أو غير ذلك[٢٩]، "فإنّ أبسط قاعدة للتكرار أنّه في حقيقته إلحاح على وجهة هامّة في العبارة يعنى بها الكاتب أكثر من عنايته بسواها، وهذا القانون البسيط يسلّط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيّة قيّمة، تفيد في تحليل نفسيّة كاتبه"[٣٠]. كان التكرار محدودا في القصة، وجاءت المفردات المكرّرة دالة من دوالّها على تلاشي الذات في دورة حياة جمعيّة، وقصد من مقاصدها على عدم توقف الأمر على فرد مهما سعى نحو الاختلاف والتفرّد كما في: (اختفاء/ نختفي، تحملني/ سأحملك، مصير/ مصائر، تكرار "لحظة" و "أذكر").

ظهرت المقابلة بشكل جليّ في القصة، إذ يكيّف العنصر المُقابل بكيفيّة بيئته النفسيّة في واقع المبدع وما يريده من تسليط الضوء على جزئيّة معيّنة منه، فجاءت المقابلة في القصة لتؤكّد دلالة المساواة بين الأفراد في استكمال دورة الحياة كما بدت في الجدول السابق: (الذكورة والأنوثة، الليل والنهار، القبح والجمال، الصغر والكبر، والنجاة والعدم، الألفة والجهل، البرد والدفء، الغلق والفتح، المرارة والحلاوة، الموت والخلود)، من المتوقع بالنظر إلى الدلالات العامة للمفردات المتطابقة في القصة أن تكون الذات البطلة سائرة في ملكوت كونيّ منظّم لا تفرقة فيه ولا محاباة، لا ظلم فيه ولا تسلّط، فجاء اهتمامها منصبّاً على ترسيخ فكرة استمرارية الدورة بصرف النظر عن كل زوج من أزواج التقابل السابقة، فيتأثّر الجمع بانعكاس الذات في مرآة الآخر، فتصف طابعاً عامّاً لسنّة كونيّة في عالمها، وتُؤطّر فيه صورة لهم، لتجري على منوالها سنن كل جنس آخر غيرهم.

اعتمد المبدع أيضا في بعض المفردات في رسم صور التعامل الإنساني على مبدأ إيهام التضاد الذي يُعَدّ من وسائل السبك المعجميّ[٣١]، إذ لم تكن تراكيب الوصف مطابقة بالمعنى الحرفيّ المعجميّ، بل تدخل في باب الطباق، وتشير إليه.

بدا ذلك في الأزواج المتقابلة الآتية:

(أ) أترك سرّتي	طوين سررهن
(ب) مستسلمة	متباهية
(ج) راغبا	منسحبا

حبة القمح تترك سرتها تنتظر مصيرها، وتحلم بمصير مختلف، بينما تطوي مثيلاتها سررهن في استقبال الموت منذ اللحظة الأولى، بين الاستسلام والمواجهة إيعاز بالتباهي ضد الاستسلام الذي لا مباهاة به ولا تفاخر، والرغبة بالمواجهة تقابل الهروب والانسحاب منها، ممّا أدى إلى مزاوجة وصفيّة بين لفظ وآخر ضمن بؤرة المعنى العام في مقابلته بنظيره.

ظهرت ظاهرة لغوية أخرى في تحقيق السبك المعجمي في هذا الوصف وهي اعتماد

المصاحبة المعجمية[٣٢] للمفردات، إذ مثلت مثلا المفردات الآتية أجزاء لحياة حبة القمح في شرنقة الأم السنبلة: (مكان ترابي/ نقطة ماء/ لسعة برد/ نقطة لبن دافئة)، ومثّلت المفردات الآتية أجزاء الذات المتخيّلة في حبة القمح: (صدري/ معصمي/ عيني) وصوّرت الثنائيات الآتية علاقة الفرع بالأصل: (محطة توليد/ طاقة)، و(زينتي/ جواهري) و(مطر/ ماء). هذه المصاحبة أدخلتنا في سلسلة مرتبة بين الجزء والجزء من جهة والكلّ والجزء من جهة أخرى، فحقّقت بذلك أيضاً سبكاً معجمياً في الوصف أدى إلى التماسك.

في هذا العرض للمصاحبات المعجمية في القصة اكتفينا بأكثرها بروزا لتدليل على تماسكها، فاعتمادها الأدوات المعجمية السابقة لم يكن عبثيّا، بل جاء مقصودا لهدف دلالي يقصده المبدع، ولتأكيد فكرة قصته.

حين النظر إلى الإطار العام الذي يجمع المفردات المتضامة في القصة نلحظ انتماءها إلى دلالة واحدة، دلالة يقصدها الخطاب في مستوياته كلّها، استمرارية دورة الحياة الجمعيّة وعدم التفاتها للذات الفرديّة، لذا تظهر عناصر الطبيعة كالـ(الريح/ الشمس) و(الريح/ التراب) و(التربة/ الطقس) في علاقة الجزء بالجزء، و(تراب/ طفولة) و(عجلة/ تدور) و(النار/ الحر) و(الماء/ المطر) في علاقة الأصل بالفرع، وهذه العلاقات لازمة لدورة الحياة في استمراريتها، وضرورة ملحّة لها.

يبنى الخطاب وفق علاقات دلالية تستند إليها المعاني، ولا بدّ لفهم هذه العلاقات ودلالتها من الروابط الشكليّة بين أجزائه، وقد تبرز علاقات معيّنة في الخطاب دون سواها، كعلاقات الإجمال والتفصيل، والسبب والمسبّب، كما تم إيضاحها في القصة، وتبدو علاقة (الإجمال/ التفصيل) هي أكثر العلاقات ظهورا في القصة، فهي أسلوب مناسب لبيان علاقة الذات المرسلة بالموجودات من حولها، فتعطيها قدرة كافية لوصف ما يرى من الأماكن والمشاعر، فجاءت التعابير متخمة بالتكرار تفصيلا لمجمل واحد وهكذا، وهناك علاقة (السبب/ المسبب) إذ ذكر تعابيره اللغوية على صورة من التأليف المخصوص لرسم علاقة السببيّة، فتُربط المفردات السببية والمسببة بسياقاتها، فليس للكلمة معنى منفصل عن سياقها، بل معناها يحدّده السياق الذي ترد فيه، ويقوم النحو ببحث العلاقات التي تربط بين الكلمات في الجملة الواحدة، وبيان وظائفها[٣٣]، في سياقاتها المختلفة.

وجاءت دلالة مبدأ الإشراك بشكل خاص، فيظهر توالي العناصر أو المتواليات اللفظية بنسق يريده المبدع ليخدم خطابه بعطف المفردات أو الجمل، فإن تحليل النصوص لا يغفل أوجه الترابط والانسجام والتفاعل بين الأبنية الصغرى الجزئية والبنية الكليّة الكبرى التي تجمعها في هيكل تجريدي[٣٤]. هذا وتمّ اختيار الربط بين الأبنية الصغرى بواو العطف استنادا إلى أهمية استخدام هذا الرابط النحوي في دلالة خطاب القصة المدروسة، وتأثيره في تشكيل ذاكرة المدى الطويل[٣٥] لدى المتلقي، فيخزّن فيها القضية الأكثر أهميّة بالإشراك، أمّا

القضايا الفرعية ذات ذاكرة مدى قصـــيرة، فلـــم تتعمق بالإشراك بالواو، هـــذا الإشـــراك الـــذي كثيرا ما كان لغايات مختلفة يقصـــدها المبـــدع ستتضح فيما يأتي.

من هنا سأذكر تمثيلا علـــى العلاقـــات السابقة في الجدولين الآتيين، الأول للعلاقـــات، والثاني للإشراك:

١ – العلاقات:

أولا: علاقة الإجمال والتفصيل:

الإجمال	التفصيل
كان الأمر هكذا لا يحدث ذلك بيسر وعفوية يحدث كثيرا أن تكون الظروف قاسية أنظر إلى الماضي بعناد وسخرية الجزء الأعظم من أخواني هذه اللحظة بالذات	(أولد داخل بيتي وأتجدّد..أولد أنا وأخواتي..لأكون أكثر وضوحا...وأكرر حضوري كل موسم) (فالمصاعب ماثلة دائما، والمعاناة ضريبة أن أحيا..صابرة على مخاطر الطريق التي لا تحصى) (رأيت أترابي وهن يطحن ..أو يختفين..أو تعاندهن الظروف..فيعدن أدراجهن إلى العدم) (أذكر مكانا ترابيا..نقطة ماء..لسعة برد..نقطة لبن)
استطعت أن أطل برأسي خارج الشرنقة لم يعد ذالك الطفل راغبا في أن يرى ما خلف أمه	هل سبقت ان قلت : لا معنى للتذكير و التأنيث في عالمي ؟ لحظة انسكب في عروقي اول كم من عصير النضج لحظة اختلاط شرنقتي الطفولة الخضراء بأردية النضج الذهبية أدرت ظهري إلى صدر مرضعتي و نظرت إلى الأفق... صار شغوفا بمواجهة ما هو أمامه....

ثانيا: علاقة السبب والمسبب

السبب	المسبّب
(أولد مع أترابي متلفّعة بشرنقتي الخضراء الناعمة) وهي تجف وتتشقّق (لتصير تلك السماء البهية قشورا ذهبية تكمل زينتي) إنني كطفل يطلّ برأسه عن كتف أمّه لأخلص من هذا الجحيم فيتلقاني حراس الأرض أشعر بحرّ شديد من حولي أصل إلى الأرض منهكة يذهبون إلى الطاحون	(أظل تحت سمائي..وأتمدّد تحت سمائي الصغيرة) أشفق عليها (تجفّ وتتشقّف مبدّدة نفسها لا أرى الأماكن والشخوص إلا وأنا منسحب منها أو هي هاربة مني... (فأنزلق من ملكوتي، وأطرق أبواب الأرض..) (فأسرع للتوراري بذرات التراب..ثم أترك سرتي لرطوبة الأرض) ولحظة أضع تاج الكمال على رأسي فأسرع للتواري بذرات التراب

كنت أشعر بخوف متواصل أستعيد شريط حياتي بشكل متقطّع مشوش	فيفقدون كينونتهم بيسر ويتحولون إلى ذرات دقيقة ثم يخلطون بالماء فأتكوّر في ملجئي فأحبط و تفتر همتي و أتوقف عن التفكير

دلّت تراكيب الوصف اللغوي في مضمونها على المعاني التي أراد الخطاب إيصالها، وبدت نظرته جليّة بإعادة المعنى سواء أكان ذلك على مستوى التفصيل أم السببيّة، ولا شكّ أنّ"ورود العنصر في سياق العناصر المتعالقة هو الذي يهيئ الاتساق ويعطي للمقطع صفة النص"(٣٦).

أمّا من جهة المعنى فيبدو لنا أنه يمكن اعتبار تأويل المجمل في حدود الأفعال التالية له، مثلا يكون المعنى التفصيلي لـ(هكذا) في: (كان الأمر هكذا) غير مكتمل إلا بالولادة الجمعيّة للبطلة ومثيلاتها والتجدّد والتكرار كل موسم، فباعتماد التوضيح المعنوي في التراكيب السابقة: (أولد داخل بيتي وأتجدّد..أولد أنا وأخواتي..لأكون أكثر وضوحا...وأكرر حضوري كل موسم)

فتظهر الصورة مكتملة، كما أن الأفعال الآتية: (يطحن، يختفين، تعاندهن الظروف، يعدن أدراجهن) غير مستقلة عن الجملة الاسمية المؤكدة المجملة: (أن تكون الظروف قاسية)، الأمر ذاته يكون لباقي الجمل المجملة.

توضح الجمل المجملة خطوطا أساسيّة لتكوين الجمل اللاحقة لها، فهي ليست سوى إشارات إلى تفصيل يأتي فيما بعد، كما أنها تنبئ ببناء الخطاب وتماسكه دلاليا، حين تجمع وتركّب الصياغات اللغوية المتلاحقة ضمن فكرة واحدة، حتى يصل القارئ إليها ويحقّق التوقعات المتوخاة.

تأتي الجمل التفصيليّة بشكل انسيابي في تتابع، ولا شك أن الاتساع الذي يأتي به ساهم في تسهيل مهمة المتلقي لفهم الخطاب ودلالاته، حيث يصعب الأمر عليه لو اكتفى بالجمل المجملة وحسب، في حين أنّ الجمل المجملة مهمّتها اختزاليّة كما في (الظروف قاسية) و(الماضي)، وتأليف الفكرة الغامضة باستخدام اسم الإشارة كـ(هكذا) و(ذلك) فيما سبق.

أمّا الجمل المفسّرة سببيا فهي تستند إلى أساس سابق لم يجد مبررا كافيا في المتوالية اللفظية، وقد ينتقل الخطاب من السبب إلى المسبّب، ولا يكتفي الخطاب بهذا الانتقال الجزئي، بل يدخل السبّب والمسبّب بها ضمن دائرة لا بداية لها تشي بدورة الحياة المستمرة التي هي جوهر القصة وبنيتها الكليّة كما في: (أولد مع أترابي متلفّعة بشرنقتي الخضراء الناعمة/ أظل تحت سمائي..وأتمدّد تحت سمائي الصغيرة) فلأنها تولد متلفعة بالشرنقة يتحتم عليها أن تظل تحت سماء الشرنقة، وسبب بقائها تحت سماء الشرنقة هو ولادتها فيها، وكما في: (إنني كطفل يطلّ برأسه عن كتف أمّه لا أرى الأماكن والشخوص إلا وأنا منسحب منها أو هي هاربة مني) فلأنها كالطفل لا ترى الدنيا إلا وهي منسحبة من أمها، وسبب عدم رؤيتها

الفردية المستقلّة للدنيا أنها كالطفل الذي يطلّ من كتف أمّه، وكما في: (ولحظة أضع تاج الكمـــال على رأسي أشعر بحرّ شديد من حـــولي). هـــذا النوع من التركيب اللغوي يسهم في فهم أفضـــل للخطاب، وليس من السهل التراوح فيه بصـــورة لافتة كما بدا في القصة. وقـــد يبـــدأ الخطـــاب بالمسبب ثم السبب كما في: (تجـــف وتتشـــقّق مبدّدة نفسها لتصير تلك السماء البهية قشـــورا ذهبية تكمل زينتي) فهذا الجفاف والتشقّق وانعدام ذات الأم، لتتحول من الاخضرار النابض بالحياة إلى الاصفرار المذهب فلا يوحي بالمرض بـــل بالتزيّن، فتخرج الأم من طور الحياة الفردية إلى أن تكون فاعلة في طور الحيـــاة الجمعيّـــة وإن كلّفها الأمر أن تعدّ من نفســـها زينـــة لأجيالهـــا القادمة، و(أشفق عليها وهي تجـــف وتتشـــقّق) فالشفقة من حبة القمح تجاه أمها السنبلة بســـبب الجفاف والتشقّق الحاصل لشرنقتها.

تختلف الدلالات وتتغاير في تقديم الفهم للمتلقي ضمن هذا التراوح، ويلاحظ حين الحديث عن الذات الجمعيّة سواء أكان الاندماج بـــالأم أم المثيلات يبتدئ الخطاب بالسبب الـــذي يـــوحي بالاندماج كما في: (إنني كطفل يطلّ برأسه عن كتف أمّه)، أمّا حين يكون الوصف لذات واحدة سواء أكانت حبة القمح أم غيرها يؤخّر السبب . ظهرت أيضا العلاقات السببيّة المزدوجـــة كمـــا في:(فأنزلق من ملكوتي، وأطرق أبواب الأرض/ لأخلص من هـــذا الجحـــيم/ فيتلقـــاني حـــراس الأرض)، فسبب انزلاقها من السنبلة إلى الأرض كي تخلص من الموت المحتم بالحصاد، لكن هذا السبب لم يتحقق حين تلقاهـــا الحصـــادون مـــن الأرض أيضا،وسبب تلقيهم لها أنها انزلقت إليها. قلّبت القصة إذن، الأسماء؛ لتدور حول موضوع واحد، يوحي بايجابية الوصف للفكرة المقصودة، ويثير شعورا بالجمال، إذ مكّنت من جعل دورة الحياة صورة تُعكس في نفس المتلقي الخطـــوط الرئيسة للإجمال الذي ينبني عليه التفصيل، فأثار بذلك انتباه المتلقي لما تريد إيصاله، من بحـــث عن التفرّد والحرية و حبّ للأرض وخيراتهـــا. لذلك يلجأ خطاب لتكرار هيكلـــيّ بنـــائيّ، فـــي الأسماء السابقة الذكر، وجاء اللفظ المكرّر وثيق الارتباط بالمعنى العام،والكثرة الملازمة في هذا النسق التركيبيّ حدّدت الإصرار على موقف من ثبات إيجابية الوصف، وحضوره الفاعل، وكأنّ الخطاب يخشى أن يغفل متلقيه عـــن الصـــورة الفريدة لحبة القمح التي يرسمها، فيبثّ الخطـــاب هنا وهناك ما يجعل متلقيه متيقّظاً دوماً لها، وما يمكّنه من رؤيتها معتمدا الإجمال ثم التفصيل كمّا بيّنا في الأمثلة السابقة.

جاء الخطاب في وصف ردود أفعـــال الهدهـــد المحرّر لحبة القمح متماشياً في الوصف بالفعل، إذ لم يستخدم من الأفعال إلّا ما دلّ على فكرتـــه من باب شبه الترادف الدلالي: (مشـــى، طـــار، اعتلى، ..). فظهر ملامح التحويل في خطّ سير حبة القمح، وكأن الخطاب لم يعد يرى غيرها في هذا الوصف الآني. أمّا توظيـــف الفعـــل فـــي خطاب الحوار بين حبة القمح والهدهد، فيبدو في تضمّنه لأربعة أنواع مختلفة من العمل هي:

١- فعل الإنتاجية الإيجابية كالأفعال.

٢- تكوين جملة الفعل وضمّه إلى عناصر إسنادية تصف جمالية التفرّد.
٣- وضع الجملة ضمن سياقها الخطابي.
٤- تحقّق صورة الوصف.

يبدو في العمل الرابع هدف المرسل ومبتغاه، فالأفعال شبه المترادفة تتقارب إلى درجة أنها تصبح ذات مدلول واحد، وتتباعد إلى الحدّ الذي يصبح فيه لكلّ لفظة مدلولها الخاص.

إذن فتقليبات المفردات السابقة بين التنكير والتعريف، وبين الوصف والإضافة دليل على تقريرها في نفس المرسل، وحرصه على الاهتمام بها بقصد قاصد، وليس مرور كرام. اعتمدها وسيلة في سبك المفردات ونظمها، وأراد بها الاختصاص من جرّاء تحديد صفة غالبة ملائمة للبح عن الذات في دورة الحياة.

٢- مبدأ الإشراك

الإشراك بين العناصر	الإشراك بين الجمل
يوم التحقيق والانبعاث على صورة السلف المواجهة والتحدي والإمساك باللحظة بعناد وسخرية اختفاء بديع ومبدع هواء طري وضوء مبلل أنا والهدهد والريح والشمس	أولد داخل بيتي وأتجدّد أتمظهر دائما على مثال الأصل وصورته، وأكرّر حضوري كل موسم بلا كلل أحيا وأحقّق ذاتي تكمل زينتي وتهيئني لليوم الموعود أترك سرتي لرطوبة الأرض وأنتظر مصيري طوين سررهن الماسيّة وذهبن إلى العدم أغلق عيني ولا أفتحهما أحبط وتفترّ همّتي قطعت دفق سباتي الآسر، وصدح بوقها باللحن المكرّر أبدا يستمرّ نوعنا ويسمو جنسنا أدرت ظهري إلى صدر مرضعتي ونظرت إلى الأفق انتشيت وتململت مستشعرة ضيق بيتي تشي بوهم الخلود ولا تفوح منها إلا رائحة الموت

يبدو في ما سبق أنّه قد تمّ عطف عنصرين يربطهما معنى عام، فيتمّمان الصورة المقصودة، فلا تكون مبتورة أو ناقصة، وغالبا ما يكون العنصر الثاني مُتوقّعا من القارئ ضمن إطاره المعنوي، أمّا الإطار اللفظي فهو ميدان المبدع واختياراته الخاصة وتفرّده في إيصال المعنى الذي وإن بدا مفهوما غير أنّه يزداد اكتمالا واتضاحا بالإشراك.

جاء الإشراك بين العناصر والجمل مبيّنا الدلالات الآتية:

- التناظر كما في تناظر الأفعال: (أولد/أتجدّد، أتمظهر/أكرّر، أحيا/أحقّق، تكمل/ تهيئ، أترك/ أنتظر...) من حيث الصيغة والزمن، فأسندت الأفعال المضارعة إلى ذات البطلة، لكنها اختلفت معنى ودلالة، فالولادة مثلا انبثاق جديد ثابت والتجدّد تكرّر دائم لجديد لا يثبت، وكذلك الحال في: (أتمظهر/ أحيا/تكمل) إذ دلّت على بداية طور الحياة، أمّا ما عطف عليها (أكرّر/ أحقّق/تهيئ) فيدلّ على شموليّة هذا الطور وعدم توقفه

على ذات واحدة، هذه الفكرة التي ترمي إليها القصة منذ البداية، وتناظر الأسماء كما في: (أنا وأخواتي) مؤكّدا الفكرة ذاتها بعلاقة تبرز الجمع وأهميّته في دورة الحياة.

- التكرار كما في: (بديع ومبدع، التحقيق والانبعاث، أتمدّد وأكبر، أحبط وتفترّ همّتي، أغلق عينيّ ولا أفتحهما، تشي بوهم الخلود ولا تفوح منها إلا رائحة الموت)، فلم يضف الإشراك معنى مغايرا، ولا حدثا مختلفا يضيف فكرة جديدة للقصة، بل أكّد المعنى السابق بلاحق لم يبتعد عنه كثيرا، سواء أكان في الاشتقاق الصرفي كما في (بديع/ مبدع) أم في الترادف كما في سائر العناصر السابقة. فالتفاعل هنا بين العنصرين المشركين أو الجملتين لا ينتهي إلى تحقيق التوقعات بقدر ما ينتهي إلى التكرار المستمر لها، وما يقرؤه المتلقي على هذا النحو سرعان ما يثبت في الذاكرة، ويثار مرة أخرى وبالخلفية ذاتها التي يريدها المرسل على نحو يشير إلى مزيد من التوقعات المقصودة.
- التأكيد الذي يقوّي المعنى كما في: (يسر وعفوية، المواجهة والتحدي والإمساك، طوين وذهبن، يستمرّ ويسمو)، فالأمر اليسر ليس بالضرورة عفوي والعكس صحيح – كما تمّ عرضه– وهما ليسا من باب الترادف، لكن اجتماعهما يقوّي المعنى الذي يريده الخطاب ويسلّط الضوء على الطريقة المنظّمة الخاصة التي يحدث بها الأمر، فيكونان عنصرين مهمّين في اتضاح الصورة المقصودة، وكذلك الحال في المواجهة، فهي لم تكن مواجهة اضطراريّة، وإن كانت إجباريّة غير أنّها لم تخل من روح التحدي والمثابرة والإمساك باللحظة بما يتاح ويؤمل من الذات القوية، كما تمّ رسمها في هذا المشهد، أمّا طوي السرر فهو من دلائل الذهاب للعدم، يشي بالاستسلام وعدم المقاومة كمن يسير بقدميه نحو الهزيمة برضا، فالإشراك تأكيدي مدعّم للمعنى.
- الجمع في الحكم كما في: (هواء طري وضوء مبلل، أنا والهدهد والريح والشمس، عناد وسخرية، قطعت وصدح، أدرت ونظرت، انتشيت وتململت)، فالجمع هنا لا تكراري ولا تأكيدي لو استغنى الخطاب عنه لبدت الصورة العامة له بلا نقصان، والزيادة في الإشراك ليس لغاية دلالية تقوّي وتدعّم، بل هي زيادة لازمة لا غنى عنها لاستكمال الصورة الناقصة بدونها، كما في تراسل الحواس في الهواء الطري والضوء المبلّل، والجمع بين الشخصيتين حبة القمح والهدهد وعناصر الطبيعة الريح والشمس الموحيتان بالحرية والانطلاق بالشمس والثورة والتجديد والدمار بالريح، والعناد قد يصاحب السخرية ليبرز صورة واهية للاحتجاج والمقاومة لكنه في الوقت ذاته لا يعدو عن كونه دالّ على مقدرة أقلّ من تلك الحالة التي لا يتصاحب فيها العناد بالسخرية، فالساخر المعاند غالبا يكتفي بصمته وقد لا يغيّر في الأمر المعني

شيئا، فإشراك العنصر الثاني هنا لم يكن تأكيدا للعنصر الأول ولا تقوية له بقدر ما كان جمعا لعنصرين مختلفين من أجل توصيل المعنى الذي يريده الخطاب. الأمر ذاته يتضح في إشراك الجمل أيضا التي تأتي بأحداث جديدة مختلفة عمّا سبقها، لتكتمل الصورة العامة كما في: (قطعت/ صدحت، أدرت/ نظرت...الخ).

وبعد، فإن المستويات الثلاثة: النحوية والمعجميّة والدلاليّة تضافرت مجتمعة، لتعطي الخطاب اتساقه وانسجامه، فيبدو قويّا مترابطا، عرضت اللافت منها الذي كان له الأثر الواضح في الترابط.

الهوامش

١. استيتية ، سمير، لسانيات المجال والوظيفة والمنهج ، ص ١٩٨- ٢٠٠.
٢. الجرجاني،عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ٩٣.
٣. الجرجاني،عبد القاهر، دلائل الإعجاز ، ص ٢٥٢.
٤. السابق، ص ٥٥.
٥. براون و يول، تحليل الخطاب ، ص ٣٣٢ .
٦. خطابي ، محمد ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص١٧.
٧. المصدر السابق، نقلا عن Halliday and Ruqaya Hassa , p 50 Cohesion in English.
٨. المصدر السابق، نقلا عن Halliday and Ruqaya Hassan , p 51 Cohesion in English
٩. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة من ص(٥-١٠)
١٠. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٥.
١١. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٥.
١٢. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٥.
١٣. الفقي، صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص ١٦١.
١٤. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٦.
١٥. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٦.
١٦. خطابي ، محمد ، لسانيات النص ، ص ٢٣ نقلاً عن Cohesion, p227 .
١٧. بوجراند ، روبرت ، النص والخطاب والإجراء ، ص ٣٤٦.
١٨. الزناد ، الأزهر، نسيج النص ، ص ٤٢ وما بعدها.
١٩. عُدّت المقارنة عند بوجراند ضمن معيار الالتحام أو الحبك (Coherence) في ترابط النص، انظر النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص ١٠٣، أمّا الوصل فضمن معيار السبك((Cohesion) ، ص ٣٠٢/٣٤٦.
٢٠. العاقد، أحمد، تحليل الخطاب الصحافي من اللغة إلى السلطة ، ص ٣٠.
٢١. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٧.
٢٢. خطابي، محمد، لسانيات النص، ص١٩.
٢٣. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص٨.
٢٤. بحيري ، سعيد حسن ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص١٨٣
٢٥. بحيري ، سعيد حسن ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص١٨٤
٢٦. غرايبة، هاشم ، حبة قمح ، القصة ص١٠.
٢٧. خطابي ، محمد ، لسانيات النص، ص ٢٤؛ نقلاً عن Halliday and Ruqaya Hassan , p 203 Cohesion in English
٢٨. أنيس، إبراهيم، و اخرون ، المعجم الوسيط، ط (٢) (يسر) و (عفا) .
٢٩. ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج٣، ٣/٨.

٣٠. الملائكة ، نازك ، قضايا الشعر المعاصـــر ، ص ٢٧٦.

٣١. عبد المجيد، جميل، البديع في البلاغـــة العربيـــة واللسانيات النصية ، ص ١١٧.

٣٢. خطابي ، محمد ، لسانيات الـــنص ، نقـــلاً عـــن p282 Cohesion in English, أراد هاليـــدي ورقية حسن بالمصاحبة المعجمية بيـــان علاقـــة رابطة بين زوج من الألفاظ، مثل علاقة التبـــاين وعلاقة الترادف، وعلاقة الدخول في سلسلة مرتبة كالكل للجزء والعكس.

٣٣. عكاشة، محمود، التحليل اللغوي في ضـــوء علـــم الدلالة، ص ١٢٣.

٣٤. بحيري ، سعيد حسن، علم لغة الـــنص المفـــاهيم والاتجاهات ، ص١٤٤ نقلا عن فندايك :van dijk 274 .

٣٥. بحيري ، سعيد حسن، علم لغة الـــنص المفـــاهيم والاتجاهات ، ص١٧٥ نقـــلا عـــن فنـــدايك van dijk293 . ذكر فان دايك ما ســـماه: الأســـاس النصي، وطاقة ذاكرة المدى القصـــير، وذاكـــرة المدى الطويل، وعلة انتقال المعلومات من الأولى إلى الثانية، وبيّن أن الفهم الفعّال لعناصر الـــنص يكمن في ذاكرة عمليّة، وهذه الذاكرة لا تملك سوى طاقة محدودة، بعد أن يخزّن فيها عدد من القضايا تملأ هذه الذاكرة، وعندئذ ينبغي أن تخـــزّن هـــذه القضايا في الذاكرة طويلة المدى، بناء على هـــذه الفكرة جاء الإشراك بالعطف الذي لم يزد معنـــى جديدا غير الذي ســـبقه، لهـــدف تـــدعيم الفكـــرة وتثبيتها في ذاكرة المتلقي لا غير .

٣٦. براون و يول، تحليل الخطاب ، ص ٣٨٩ .

قائمة المراجع

- ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج٣، قدم له وحققـــه وشرحه وعلق عليه أحمد الحـــوفي وبـــدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الريـــاض، ط٢، ١٩٨٤م.
- أنيس، إبراهيم، عبدالحليم مُنتصِـــر، عطيـــة الصَّوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجـــم الوسيط، ط (٢)، دار إحياء التراث العربي،
- استيتية ، سمير، لسانيات المجال، والوظيفة، والمنهج ، عـــالم الكتـــب الحـــديث، اربـــد، ٢٠٠٥م.
- الملائكة ، نازك ، قضايا الشعر المعاصـــر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨١م.
- بحيري ، سعيد حسن ، علم لغـــة الـــنص المفاهيم والاتجاهـــات، الشـــركة المصـــرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٧م.
- بوجراند ، روبـــرت ، الـــنص والخطـــاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- براون و يول، تحليـــل الخطـــاب، ترجمـــة وتعليـــق منيـــر التريكـــي ومحمـــد لطفـــي الزليطني، الرياض، ١٩٩٣م.
- الجرجاني،عبد القاهر، أبو بكر عبد القـــاهر بن محمود، دلائل الإعجاز، تحقيـــق محمـــد شاكر، المؤسسة السعودية بمصر، القـــاهرة، ١٩٩٢م.
- خطابي ، محمد ، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقـــافي العربـــي، بيروت، ١٩٩١م.
- الزناد ، الأزهر، نسيج الـــنص ، المركـــز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣م.

- العاقد، أحمد، تحليل الخطاب الصحافي من اللغة إلى السلطة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م.
- عبد المجيد، جميل، البديع في البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- عكاشة، محمود، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، ، دار النشر للجامعات، القاهرة، ٢٠٠٥م .
- غرايبة، هاشم، حبة قمح، دار ناشرون الآن، عمان، ٢٠١٥م.
- الفقي، صبحي إبراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.